وحج رسول الله فى العام القابل ، وحج المسلمون معه ؛ وقد عاد الدين كله واحدا لله رب العالمين . ولم يحج فى حجة الوداع مشرك .

وهذا هو سر الانذار بهذه السورة المباركة التى هدمت قوى المشركين وردعتهم ، فرعبوا وأنابوا الى الله ؛ إذ علموا أن لا ملجأ من الله إلا اليه .

سنة الوفود وهى سنة ٩

لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ؛ وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ؛ وكان ذلك سنة تسع ، وانما كانت العرب تربص بالاسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله ، وذلك أن قريشا كانوا امام الناس وهاديهم . وأهل البيت والحرم ؛ وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ؛ وقادة العرب لاينكرون ذلك — وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله وخلافه ؛ فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ودوخها الاسلام ، عرفت العرب أنه لاطاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه كما بينه الله لنبيه فى سورة اذا جاء نصر الله والفتح .

وكانت الوفود بعد رجوعه ﷺ من الجعرانة فى آخر سنة ثمان ومابعدها من سنة تسع وعشر . وروى انها ابتدأت بعد غزوة تبوك ، ومجموع ماذكره أهل السير يزيد على الستين وسنقتصر على مارأيناه أهم

فأول الوفود وفد هوازن بالجعرانة وقد سبق بيانه ؛ ثم وفد ثقيف بعد قدوم النبى من تبوك ؛ ثم وفد تميم وقد مضى بيانهما .

(٤) وفد بنى عامر — وفد على النبى بنو عامر بن صعصعة ، وفيهم عامر بن الطفيل صاحب بئر معونة الذى قدم وهو يريد الغدر بالنبى ، وقد قال له قومه ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأربد بن قيس : اذا قدمنا على الرجل فانى سأشغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، فلما قدموا على النبى قال له عامر خالنى يامحمد (صادقنى ، أو بتخفيف اللام مكسورة أى انفرد لى خاليا حتى أتحدث معك) قال : لا ، حتى تؤمن بالله وحده ، قال يامحمد خالنى وجعل يكلمه وينظر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أربد لايحير شيئا ، فلما رأى عامر مايصنع أربد ، قال خالنى يامحمد ، فأبى الا على ذلك الشرط ، فقال ماتجعل لى أن أسلمت ؟ قال لك مالمسلمين وعليك ماعليهم ، قال أتجعل لى الأمر بعدك ؟ قال ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل ، قال أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال لا ، فقام عنه وقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا — فلما خرجوا من عند النبى قال عامر لأربد : ويلك ! أين ماكنت آمرتك به ؟ فقال : والله ماهممت بقتل محمد ألا رأيتك بينى وبينه ، أفأقتلك ؟ فلما كان القوم ببعض الطريق أصاب الطاعون عامرا فقتله . فخرج أصحابه حتى وافوه حتى قدموا أرض بنى عامر ، فقال القوم : ماورائك يا أربد ، قال لاشىء ، والله لقد دعانا الى عبادة شىء لوددت أنه عندى الآن فارميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين فأصابته صاعقة فهلك ، وهو أخو لبيد ابن ربيعة الشاعر لامه .

(٥) ثم قدم على رسول الله ﷺ وفد الحرث بن عبد الله كلال والنعمان قيل ذى رعين وهمدان ومعافر — وبعث زرعة بن ذى يزن رسوله مالك بن مرة الرهاوى باسلامهم ومفارقة الشرك وأهله ، وكتب اليهم النبي ﷺ كتابه ، وبعث إلى ذى يزن معاذ بن جبل مع رسوله مالك بن مرة يجمع الصدقات ، وأوصاهم برسله معاذ وأصحابه

(٦) ووفد عدى بن حاتم من طيء فأسلم ، وكان رسول الله ﷺ قد بعث قبل تبوك على بن أبى طالب فى سرية فأغار عليهم ، وأصيب حاتم وأسرت ابنته ، وغنم سيفين فى بيت أصنامهم كانا من قربان الحرث بن أبى شمر ، وكان عدى قد هرب قبل ذلك ولحق ببلاد قضاعة بالشام ، فرارا من جيوش المسلمين وجوارا لأهل دينه من النصارى ، وأقام بينهم ، ولما سيقت ابنة حاتم جعلت فى الحظيرة بباب المسجد التى كانت السبايا تحبس بها ، ومر بها رسول الله ﷺ فكلمته ان يمن عليها ، فقال قد فعلت ولا تعجلى حتى تجدى ذا ثقة من قومك يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى ، قالت : فأقمت حتى قدم ركب من بنى قضاعة ، وأنا أريد أن آتى أخى بالشام ، فعرفت رسول الله ، فكسانى وحملنى وزودنى ، وخرجت معهم وقدمت الشام ، فلما لقيها عدى ، تلاوما ساعة ، ثم قال لها : ماذا ترين فى أمرى مع هذا الرجل ؟ فأشارت عليه باللحاق به ، فوفد ، واكرمه رسول الله ﷺ ، وادخله بيته ، واجلسه على وسادته ، بعد استوقفت النبي فى طريقه امرأة فوقف لها ، فعلم عدى انه ليس بملك ، وانه نبي ، ثم أخبره النبي عن أخذه المرباع من قومه وهو لا يحل له ، فازداد استبصارا ، ثم قال له : لعله انما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فيوشك أن يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه أو لعله يمنعك ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على

بعيرها حتى تزور هذا البيت لاتخاف ، أو لعله يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت ، فأسلم عدى وانصرف إلى قومه

(٧) وبعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة فقدم على رسول الله ﷺ فاستحلفه على ماجاء به من الاسلام ، وذكر التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج واحدة واحدة ، حتى إذا فرغ تشهد وأسلم وقال : لأؤدى هذه الفرائض واجتنب مانهيت عنه ، ثم لاأزيد عليها ولا أنقص ، فلما انصرف قال ﷺ : ان صدق دخل الجنة ، وقدم ضمام على قومه فاسلموا كلهم يوم قدومه .

(٨) وفى سنة عشر بعث النبي خالد بن الوليد فى سرية إلى نجران وماحولها يدعو بنى الحرث بن كعب إلى الاسلام ويقاتلهم ان لم يفعلوا ، فاسلموا وأجابوا داعيته ، وبعث خالد الرسل فى كل وجه فأسلم الناس ، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فكتب اليه أن يقدم مع وفدهم فأقبل خالد ومعه وفد بنى الحرث فاكرمهم رسول الله فأسلموا ، وأمر عليهم قيس بن الحصين منهم ، فرجعوا واتبعهم عمرو بن حزم النجارى ليفقههم فى الدين ، ويعلمهم السنة ، وكتب اليهم كتابا عهد اليه فيه عهده ، وأمره بأمره ، وقد وقع هذا الكتاب فى السير مرويا واعتمده الفقهاء فى الاستدلالات ، وفيه مآخذ كثيرة للأحكام الفقهية

(٩) وقدم وفد ازدجرش وفيهم صرد بن عبد الله الأزدى فى عشرة من قومه ، فبعد ان اسلموا أمر رسول الله صردا على من اسلم منهم ، وأن يجاهد المشركين حوله ، فذهب فحاصر ازدجرش ومن بها من خثعم وقبائل اليمن ، وكانت جرش حصينة فحاصر من اجتمع فيها شهرا ، ثم انصرف عنهم فظنوا انه انهزم ، فاتبعوه إلى جبل شكر فصف وحمل عليهم ونال منهم ، وكانوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ رائدين فأخبرهما بواقعة شكر ، وقال ان بدن الله

لتتخير عنده الآن ، فرجعا إلى قومهما ، واخبراهم بذلك فاسلموا ، وحمى لهم حمى حول قريتهم

(٩) ووفدت همدان واسلمت . وكانت وفادتهم على يد على ، وذلك أن رسول الله بعث خالدا إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الاسلام فمكث ستة أشهر لايجيبونه ، فبعث إليهم على بن أبى طالب ، وأمره أن يقفل خالدا ، فلما بلغ على أوائل اليمن ، جمعوا له ، فلما لقوه صفوا ، فقدم على الانذار ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ، فأسلمت همدان كلها فى ذلك اليوم ، وكتب بذلك إلى النبي ، فسجد شكرا لله ، ثم قال : السلام على همدان ثلاث مرات ؛ ثم تتابع أهل اليمن على الاسلام وقدمت وفودهم

(١٠)وكان عمرو بن معد يكرب الزبيدى قال لقيس بن المكشوح المرادى : اذهب بنا إلى هذا الرجل ، فلن يخفى علينا أمره ، فابى قيس من ذلك ، فقدم عمرو على النبى فأسلم ، ثم ارتد ولحق بالاسود العنسى كما سيجىء

وكان فروة بن مسيك المرادى على زبيد ، لأنه وفد قبل عمرو ومفارقا الملوك كندة فأسلم ونزل على سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الاسلام ، فاستعمله رسول الله على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصى على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى الوفاة

(١١) وقدم وفد عبد القيس ، يقدمهم الجارود بن عمرو ، وكانوا على دين النصرانية ، فاسلموا ورجعوا إلى قومهم ؛ ولما كانت الوفاة ارتد عبد القيس ، ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر الذى يسمى الغرور ، وثبت الجارود على الاسلام ، وكان له المقام المحمود . وهلك قبل أن يراجعوا ؛ وقد كان النبي أرسل العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدى ، فاسلم وحسن اسلامه ، وهلك بعد الوفاة وقبل ردة أهل البحرين ، والعلاء عنده أمير على البحرين لرسول الله ﷺ

(١٢) وفد مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفه قومه

قدم مسيلمة المدينة على عهد رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : ان جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل النبي ومعه ثابت بن قيس ، وفى يد النبي قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : ان سألتنى هذه القطعة ماأعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وانى أراك الذى أريت فيه مارأيت ، ثم انصرف فسأل ابن عباس مامراد النبى بالعبارة الأخيرة فروى له ابو هريرة أن النبي ﷺ قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فاهمنى شأنهما فاوحى الى فى المنام أن انفخهما ، فنفختهما فطارا ، فاولتهما كذابين يخرجان من بعدى ، فهذان هما ، أحدهما العنسى صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة

هذا — وكان مع مسيلمة الرجال بن عنفوة وطلق بن على وعليهم سلمان بن حنظلة ، فاسلم ثلاثتهم ، واقاموا أياما يتعلمون القرآن من ابى بن كعب ، ورجال يتعلم ، وطلق يؤذن لهم ومسيلمة فى الرحال ، فذكروا للنبي مكانه فى رحالهم فأجازه وقال ليس بشركم مكانا لحفظه رحالكم ، فقال مسيلمة : قدعرف ان الامر لى من بعده ، فلما رجع ارتد وأدعى النبوة وشهد له الرجال وطلق بأن النبي أشركه فى الأمر ، ثم وضع عنهم الصلاة واحل لهم بعض المحرمات فافتتن الناس به ، فكتب إلى رسول الله : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك فانى قد أشركت فى الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم لايعدلون ، فكتب اليه رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين — قيل ان ذلك كان بعد منصرف النبي من حجة الوداع

(١٣) وفد كنده — وقدم الأشعث بن قيس فى ثمانين أو ستين من قومه أو أكثر ، وعليهم الديباج والحرير ، فأسلموا ، ونهاهم النبي عن الحرير فشقوه ونزعوه والقوه ، وقال له الأشعث : السّم منا ؟ فقال النبي : نحن بنو النضر ابن كنانة ، لا نقفو أمنا (نرميها بالفجور) ولا ننتفى من ابينا ، أراد الأشعث ان للنبى جدة من كنده هى أم كلاب بن مرة ، وأراد النبي أن من انتسب إلى غير أبيه فقد انتفى من أبيه وقفا أمه

(١٤) وقدم مع وفد كندة وفد حضرموت ، وهم بنو وليعة وملوكهم فأسلموا .

وقدم وائل بن حجر قبل حضرموت راغبا فى الاسلام فدعا له ومسح رأسه ، ونودي الصلاة جامعة سرورا بقدومه ، وأمر معاوية أن ينزله الحرة فمشى معه وكان راكبا ، فقال له معاوية : أعطنى نعلك اتوقى بها الرمضاء فقال ماكنت لا لبسها وقد لبستها ؛ وفى رواية أخرى : لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك ، فقال أردفنى ، قال لست من أرداف الملوك ، فقال : إن الرمضاء قد أحرقت قدمى ، قال : أمش فى ظل ناقتى كفاك به شرفا .

ولما انصرف كتب اليه رسول الله ﷺ كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد النبي الى وائل بن حجر قيل حضرموت ، انك إن أسلمت ، لك مافى يديك من الأرض والحصون ، ويؤخذ منك من كل عشر واحدة ، ينظر فى ذلك ذوا عدل ، وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين ، والنبي والمؤمنون اشهاد عليه .

(١٥) وفد نصارى نجران ، وكانوا سبعين راكبا يقدمهم أميرهم العاقب عبدالمسيح من كندة . واستقفهم أبو حارثة من بكر بن وائل ، والسيد الايهم ، فسألوه وسألهم وجادلوا عن دينهم وقالوا ماتقول فى عيسى ؟ فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران وفيها قوله (إن مثل عيسى عند الله ... الآية) وآية

المباهلة بعدها (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم .. الآية) فأبوا أن يقروا وطلبوا المباهلة أو طلبها النبي ، فأصبح رسول الله وخرج اليهم ومعه على وفاطمة والحسن والحسين ، فلما رأوهم قالوا : إن هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، وابوا المباهلة وفرقوا منها ، وسألوا الصلح فكتب لهم به ، على الف حلة فى صفر والف فى رجب ، وعلى دروع ورماح وخيل وحمل ثلاثين من كل صنف ، وطلبوا أن يبعث معهم واليا يحكم بينهم ، فبعث أبا عبيدة ، ثم جاء السيد والعاقب فأسلما .

(١٦) وأوفد فروة بن عمرو الجذامى ملك عرب الروم ، أرسل رسولا باسلامه واهدى للنبي بغلة بيضاء ، وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وماحولها من أرض الشام ، فلما بلغ الروم ذلك من اسلامه طلبوه فأخذوه فحبسوه ثم قتلوه صلبا ، فكان هذا من أسباب غزو الروم .

(١٧) ووفد بنو أسد ، عشرة رهط فيهم طليحة بن خويلد فقال متكلمهم للنبي ﷺ .. جئناك ولم تبعث إلينا بعثا ونحن لمن وراءنا ، فأنزل الله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا ... الآية) .

(١٨) وفد عذرة الذين قال لهم رسول الله من القوم ؟ فقال متكلمهم : من لاتنكره ، نحن بنو عذره أخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا تصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، ولنا قرابات وارحام ، فقال لهم النبى : مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم ، فاسلموا وبشرهم رسول الله بفتح الشام ، وهرب هرقل الى ممتنع من بلاده ، ثم انصرفوا واجيزوا .

(١٩) وفد بلى — وقدم وفد بلى فأنزلهم رويفع بن ثابت البلوى وقدم بهم على رسول الله وقال هؤلاء قومى ، فرحب به وبهم فأسلموا فقال لهم الحمد لله الذى هداكم للاسلام وأقاموا ثلاثا ثم ودعوا رسول الله واجازهم فرجعوا الى بلادهم .

(٢٠) وفد النخع — وقدم على النبي وفد النخع وهم آخر الوفود في نصف لمحرم سنة إحدى عشرة في مائتي رجل فنزلوا في دار الضيافة ، ثم جاءوا رسول لله مقرين بالاسلام ، وكانوا بايعوا معاذ بن جبل.

هذا — وقد وفدت وفود أخرى كثيرة

كوفد بهراء ، ووفد بني فزارة وفيهم خارجه بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس ، ووفد غسان في ثلاثة نفر ، فأسلموا وانصرفوا إلى قومهم فلم يجيبوا إلى الاسلام ، فكتموا أمرهم ، ولقي واحد منهم أبا عبيدة باليرموك ، أخبره باسلامه ؛

ووفد الرها من مذحج في خمسة عشر نفرا واهدوا فرسا ، واسلموا تعلموا القرآن وانصرفوا ، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول الله ؛ — وفد دوس آل الطفيل بن عمرو الدوسي الذي أشرنا اليه في حديث وقوف ريش في وجه من يقصد النبي وهو بمكة من أعيان العرب .

ووفد عبس ، ووفد خولان عشرة نفر فأسلموا وهدموا صنمهم — وفد جذام ، ووفد طيء يقدمهم سيدهم زيد الخيل وغيره فاسلموا ، وسماه رسول الله زيد الخير واقطع له بئرا وارضين معه ، وكتب له بذلك ، فذات ، مرجعه .

والغرض من سوق هذه الوفود أن تتبين أن جزيرة العرب كلها أوت الى عظيرة الاسلام ، وأصبح أهلوها على اختلاف أماكنهم ونحلهم مسالمين لله لرسوله ، وللمسلمين ، يلقون اليهم بالمودة ، وكل ذلك على أثر اسلام قريش و فتح مكة ، وإسلام ثقيف ، فسبحان من وفق وهدى ، وأظهر دينه على لدين كله .

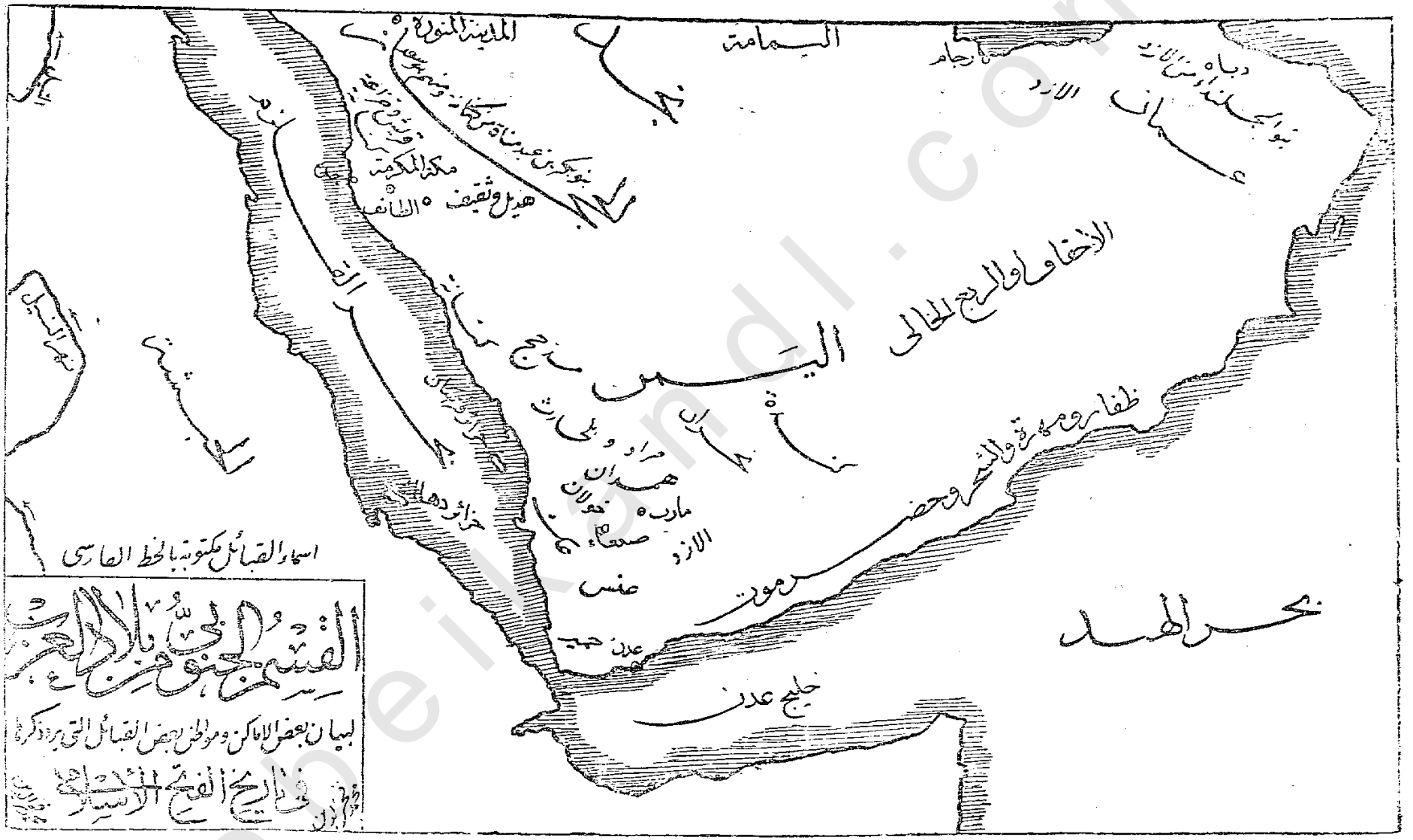
المدينة المنورة
اليمامة
مكة المكرمة
الطائف
الاحقاف والربع الخالى
اليمن
حضرموت
عدن
خليج عدن
بحر الهند
اسماء القبائل مكتوبة بالخط الفارسى
القسم الذى بلون بالاحمر
لبيان بعض الاماكن ومواطن بعض القبائل التى يرد ذكرها
فى تاريخ الفتح الاسلامى

حجة الوداع

لاخلاف فى أنه ﷺ لم يحج بعد الهجرة إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهى حجة الوداع ، ولا خلاف فى أنها كانت سنة عشر

ولما عزم أعلم الناس أنه حاج ، فتجهزوا للخروج معه ، وسمع بذلك مَن حول المدينة فقدموا يريدون الحج معه ، ووافاه فى الطريق خلائق لايحصون ، فكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر .

ثم خرج من المدينة نهارا بعد الظهر لست بقين من ذى القعدة ، بعد أن خطبهم خطبة علمهم فيها الاحرام وواجباته وسننه

ولما نزل ذا الحليفة صلى بها العصر ركعتين وبات . فلما أراد الاحرام اغتسل ثم لبس أزاره ورداءه وصلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة ، وقلد قبل الاحرام بدنه نعلين واشعرها فى جانبها الأيمن ، فشق صفحة سنامها وسالت الدم عنها ، ثم مضى فمر بالأبواء ثم بوادى عسفان ثم بسرف ، ثم نهض فنزل بذى طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة فدخلها نهارا من أعلاها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون ، ثم سار حتى دخل المسجد من باب بنى عبد مناف وهو الآن باب بنى شيبة ، ثم عمد إلى البيت فطاف وكلما حاذى الحجر الاسود أشار اليه واستلمه بمحجنه ، فلما فرغ صلى خلف المقام ركعتين ، ثم أقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا إلى الصفا ومنها ابتدأ

السعى إلى المروة وكان على ناقته ليراه الناس

ثم أقام بعد ذلك أربعة أيام بظاهر مكة يقصر الصلاة

فلما كان يوم الخميس توجه ضحى إلى مني بمن معه من المسلمين فصلى بها الظهر والعصر وبات ، فلما طلعت الشمس يوم الجمعة ، سار منها إلى عرفة وضربت له بنمرة قبة فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس ، أمر براحلته فرحلت ، ثم سار حتى أتي بطن الوادي من أرض عُرَنَةَ فخطب الناس خطبة بليغة بين فيها مايّن :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اسمعوا قولى ، فانى لاأدري لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبدا ، أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، قضى الله انه لاربا ، وان ربا عباس بن المطلب موضوع كله ، وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم أضع ، دم ابن ربيعة بن الحرث ابن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية

أما بعد أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بارضكم هذه أبداً ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ،

يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ماحرم الله ، فيحلوا ماحرم الله ، إلا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس . وأوصى بالنساء خيرا وذكر الحقوق التى لهن وعليهن ، ثم قال : اعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ماإن أعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه ، واعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة ، لايحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ فذكر أن الناس قالوا اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد . انتهى .

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ، ربيعة بن أميه بن خلف ، وأقام النبى حتى صلى العصر ثم ركب حتى أتى الموقف وقال وقفت هنا وكل عرفة موقف ، ثم أفاض الى المزدلفة وبات بها حتى أصبح فصلى الصبح فى وقتها يوم النحر ، وهو يوم العيد ويوم الحج الاكبر ، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك ، ثم ركب حتى أتى موقفه من المشعر الحرام ودعا وكبر وهلل ، ثم سار الى بطن محسر وسلك الطريق التى تخرجه على الجمرة الكبرى حتى أتى منى ، فخطب خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، ثم أوصى كثيرا وأعلم الناس ان منى كلها

منحر ، ثم انصرف الى المنحر فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، وهو عدد سني عمره ، وأمر عليا أن ينحر مابقى من المائة — ولما أكمل ذلك حلق ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكبا ، فطاف طواف الافاضة ، وهو طواف الصدر ولم يسع معه ، ثم أتى زمزم فشرب وهو قائم ، ثم رجع فصلى الظهر بمنى وبات بها ، فلما أصبح وزالت الشمس مشى من رحله الى الجمار ولم يركب ، فبدأ بالجمرة الاولى التى تلى مسجد الخيف ، ثم أتى الى الجمرة الوسطى ، ثم أتى الى الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة ، وقد رمى فى كل واحدة منها بسبع حصبات ، وقد استأذنه العباس أن يبيت بمكة ليال مني من أجل سقايته فاذن له ، ولم يتعجل رسول الله فى يومين بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة ، وأفاض يوم الثلثاء بعد الظهر الى المحصب وهو خيف بنى كنانة فبات ثم نهض الى مكة فطاف طواف الوداع ليلا سحرا ، ثم ارتحل من فوره الى المدينة ، فلما أتى ذا الحليفة بات بها ، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وهلل وحمد الله كثيراً .

هذا ماكان فى صفة حجة الوداع ، وكل حركاتها أحكام فقهية بينها رسول الله للناس حكما حكما ، وأمر الناس بأخذها عنه حتى لايعودوا فيحدثوا فى مناسك الحج مثل الذى ابتدعته العرب فى الجاهلية . أما مابينه فى خطبته فاهم ماكان منه موجزا .

(١) تحريم الدماء والاموال والاعراض أو منع العدوان ليسود السلم بين المسلمين

(٢) تحريم الربا وهو كل فضل منعا لما ينشأ عن الربا من الظلم والعداوة والبغضاء

(٣) تحريم الطلب بالثارات التي مضت في الجاهلية ، قطعا لدابر الحزازات القديمة التي كانت مثار أكثر الحروب الطاحنة في الجاهلية

(٤) الاستمساك بكتاب الله وسنة نبيه في التشريع واستنباط الاحكام ، حتى لا تطغى الاهواء على ما أنزل الله ، فتعود احكام الجاهلية وحتى لا تطمس معالم السنة فتنتشر البدع فان كل بدعه ضلاله

(٥) ابطال عادة تأخير الشهور عن مواضعها حتى لا تؤدى فريضة الحج مثلا الا في ذى الحجة .

وبالتأمل نجد أن في هذا الذى بينه رسول الله ﷺ للناس فيما بين ، ضمانا للسعادة التي ينشدها عامة البشر الذين يتبعون الرسول النبي الامي فيما يأمر به من الطيبات وينهى عنه من الخبائث ، معتمدين في ذلك من بعده على كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد

لذلك كانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ ، كما تسمى حجة الوداع

بعث اسامة

والما رجع النبي من حجة الوداع آخر ذى الحجة ضرب على الناس في شهر المحرم بعثا إلى الشام ، وأمر عليهم مولاه اسامة بن زيد بن حارثة ، أمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الاردن من أرض فلسطين ومشارف الشام ، فتجهز الناس ، واوعب معه المهاجرون الاولون ، فبينا الناس على ذلك ، ابتدأ النبي بشكواه التي قبضه الله

فيها إلى كرامته ورحمته . وتكلم جماعة من المنافقين فى إمرة اسامة ، فقال رسول الله للناس : قد بلغنى ان اقواما تكاموا فى امارة اسامة وإنه لحقيق بها ، انفروا ، فضرب اسامة بالجرف وتمهل ، وثقل رسول الله وتوفاه الله قبل توجه اسامة ، فأنفذه الصديق فى خلافته كما سيجىء

أخبار الاسود ومسيلمة وطليحة

كان النبى بعد أن قضى حجة الوداع ، تحلل به السير فاشتكى ، وطارت الاخبار بذلك . فوثب الاسود باليمن ، ووثب مسيلمة باليمامة ، ووثب طليحة بن خويلد فى بنى أسد ، يدعى كلهم النبوة ، وحاربهم رسول الله ﷺ بالرسل والكتب الى عماله ، ومن ثبت على إسلامه من قومه أن يجدوا فى جهادهم ، فاصيب الاسود قبل وفاته ﷺ بيوم ، ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه ، فبعث إلى المسلمين من العرب فى كل ناحية من نواحى هؤلاء الكذابين ، يأمرهم بجهادهم ، وجاء كتاب مسيلمة اليه فاجابه كما مر ، وجاء ابن أخى طليحة يطلب الموادعة ، فدعا عليه ﷺ ، حتى كان من حكم الله فيهم بعده ما كان

العمال على النواحى

كان رسول الله حين أسلم باذان — عامل كسرى على اليمن — وأسلمت اليمن ، امّره على مخاليفها ولم يشرك معه فيها أحدا حتى مات باذان ، وبلغه ﷺ موته منصرفه من حجة الوداع ، فقسم عمله على جماعة من أصحابه

فولى على صنعاء ، شهر بن باذان ، وعلى مارب ، أبا موسى الاشعرى ،

وعلى الجند : يعلى بن أمية ، وعلى همدان : عامر بن شهر الهمدانى ، وعلى عك والاشعريين : الطاهر بن أبى هالة ؛ وعلى مابين نجران وزمع وزبيد : خالد بن سعيد بن العاصى ؛ وعلى نجران : عمرو بن حزم ؛ وعلى حضرموت : زياد بن لبيد ؛ وعلى السكاسك والسكون : عكاشة بن ثور الغوثى ؛ وعلى معاوية بن كندة : المهاجر بن أبى أمية ، واشتكى المهاجر فلم يذهب : فكان زياد بن لبيد يقوم على عمله ؛ وبعث معاذ بن جبل معلما لاهل اليمن وحضرموت ، وكان قبل ذلك قد بعث على الصدقات : عدى بن حاتم على صدقة طيء وأسد ، ومالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة ، وقسم صدقات بنى سعد بين رجلين منهم ، وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين ، وبعث على بن أبى طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويقدم عليه بها ، فوافاه فى حجة الوداع وحج معه

حديث الأسود العنسى

وإذ كان أمر هذا الكذاب قد ظهر فى حياة رسول الله ﷺ ، وقُضى عليه فى حياته أيضا إذ لم يقتل إلا قبيل الوفاة ، رأيت أن أسوق حديثه هنا ، وأؤجل حديث غيره من المتنبئين إلى أيام أبى بكر رضى الله عنه :

(١) لما ظهر هذا الكذاب باليمن حاربه شهر بن باذان فهزمه الأسود وفرق الابناء عنه ، وظفر به بعد فقتله وغلب على صنعاء ، وهرب عمال رسول الله ، وجعل أمر الكذاب يستطير استطارة الحريق

(٢) وكان جعل عمرو بن معديكرب خليفته فى مذحج بعد أن

أرتد عمرو . وكان مع خالد بن سعيد بن العاصى فلقه واستجاب للأسود فسار اليه خالد ولقيه فاختلفا ضربتين فقطع خالد حمائل سيفه الصمصامة وأخذه ، ونزل عمرو عن فرسه وفتك فى الخيل ثم لحق بالاسود فولاه على مذحج كلها

وجعل أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمى وداذويه ، وسطا الأسود على امرأة شهر واسمها أزاذ فتزوجها

(٣) وانفذ رسول الله إلى فيروز وغيره من الأبناء يأمرهم بالقيام على دينهم ، وأن ينهضوا فى الحرب والعمل فى الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، فألفى كتاب رسول الله الى أصحابه هؤلاء تغير الاسود على قيس ، فقالوا إن قيسا يخاف على دمه ، وهو لأول دعوة ، فهلم ندعوه ، فاجتمعوا لذلك ثم دعوه وأبثوه أمرهم ، وأبلغوه عن النبى ماجاءهم ، فكأنما وقعوا عليه من السماء ، لأنه كان فى غم وضيق بأمره فأجابهم الى ما أحبوا .

وكان قيس قد وثب على فروة بن مسيك عامل رسول الله على مراد فأجلاه وانضم الى الأسود كعمرو فولاه جنده ، فلما انتشر أمر الكذاب ودانت له البلاد ، فغلب على مابين صنعاء وحضرموت الى أعمال الطائف والبحرين ، استخف بقيس وبفيروز وداذويه وتهدد الجميع .

ثم ان عامر بن شهر بن باذان اعترض فى قوم من أعيان اليمن فكاتبوا النبى وكاتبوا أصحابه وبذلوا لهم النصر ، فكان أصحاب النبى

فى سر قد اتفقوا عليه ، فاجابوا القوم بالتوقف ،وذلك لأن أمر الأسود قد استتب واستفحل فهابوه هيبة شديدة ، وعاملوه بالتقية .

(٤) بدء التدبير على الأسود — ثم دخل جشيش الديلمى على أزاذ فقال يا ابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك ، وطأطأ فى قومك القتل وسفك بالاباحة دم من بقى منهم وفضح النساء ، فهل عندك معالأة عليه ؟ فقالت وعلى أى أمره ؟ قال جشيش فقلت إخراجه ، فقالت أو قتله ، قلت أو قتله ،قالت نعم ، والله ماخلق الله شخصا ابغض الى منه ، ماينتهى عن حرمة لله ، فاذا عزمتم فاعلمونى ، أخبركم بمأتى هذا الأمر ، قال جشيش فأخرج فاذا فيروز وداذويه ينتظرانى ، وإذا قيس قد دعاه الأسود فدخل اليه فى عشرة من مذحج وهمدان ، فقال له الأسود ياقيس ، ألم أفعل بك ألم أصنع ؟ يعتد عليه بنعمه ، فقال بلى ، قال فانه (يعنى شيطانه) يقول : إن قيسا على الغدر بك ايه ياسواه ياسواه ، إلا تقطع من قيس يده ، قطع قنتك العليا ، حتى ظن قيس أنه قاتله ، فقال كذبك وذى الحمار ، فاما قتلتنى فانها موتة مريحة أهون على من موتة أموتها كل يوم خوفا وفرقا ، وإما صدقتنى فوالله لانت أهيب وأجل فى نفسى من أن أحدثها بغدرلك — وأخرجه ، قال جشيش فخرج علينا قيس وطوانا ، غير أنه قال : اعملوا عملكم ، ثم خرج علينا الأسود فقمنا مثولا بين يديه بالباب ، فقال يافيروز ، أحق مابلغنى عنك ؟ وهيأ له الحربة ، لقدهممت ان انحرك ، فقال فيروز : اخترتنا أيها الملك لصهرك وفضلتنا على الابناء ، ولو لم تكن نبيا مابهنا نصيبك ونصيبنامنك بشىء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة وأولى ، لاتقبلن علينا أمثال مايبلغك ، فانا بحيث تحب .

ثم ذبح الاسود مائة من بين بقرة وبعير وقال لفيروز أقسم هذه فأنت أعلم بمن ههنا ، قال فيروز ففعلت هذا ولحقته قبل أن يصل الى داره ، فاذا رجل

يسعى اليه بى ، فأستمع له وهو يقول : أنا قاتله غدا وأصحابه ، فاغد على ، ثم التفت فاذا فيروز ، فقال له مه ، فقال قد قسمتها كما أمرتنى ، قال أحسنت ، وضرب دابته ودخل ، فرجع فيروز الى أصحابه فأخبرهم بالخبر ، قال جشيش : فأرسلنا الى قيس فجاءنا فاجتمع ملؤهم على أن أذهب الى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتشير علينا برأيها ، فاتيت المرأة وقلت ماعندك ؟ قالت : هو متحرز محترس ، وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به ، غير هذا البيت ، فان ظهره الى مكان كذا وكذا من الطريق ، فاذا أمسيتم فانقبوا عليه ، فانكم دون الحرس ، وليس دون قتله شيء وقالت : انكم ستجدون فيه سلاحا وسراجا ، فهو علامة لكم ؛ فخرجت من عندها ، وتلقانى الاسود خارجا من بعض منازله فقال . ما أدخلك على ؟ ووجأ رأسى حتى سقطت ، وصاحت المرأة وادهشته عنى ، ولولا ذلك لقتلنى ، وقالت : ابن عمى جاءنى زائرا ، فقصرت بى ، فقال اسكتى لا أبالك فقد وهبته لك ؛ فتحاملت وأتيت أصحابى فقلت النجاء ، الهرب ، واخبرتهم الخبر ؛ فانا على ذلك حيارى إذ جاءنى رسولها يقول . لاتدعن مافارقتك عليه ، فانى لم أزل به حتى اطمأن واعتذر ، فقلنا لفيروز ائتها وتثبت ، فأما انا فلا سبيل لى الى الدخول منفردا بعد النهى ، ففعل ، وكان فيروز أفطن منا ، فلما أخبرته الخبر قال ، وكيف نثقب على بيوت مبطنة الابواب ، ينبغى لنا أن نقلع بطانة الباب فندخلا فاقتلعا البطانة ثم اغلقاه وجلس عندها كالزائر ، فدخل الاسود فاستخفته غيرة ، واخبرته ازاذ برضاع ، وقرابة مثلها محرم ، فصاح به وأخرجه فجاء بالخبر .

(٥) تنفيذ الخطة ، قال جشيش ، فلما امسينا عملنا فى امرنا ، وقد كنا واطأنا أشياعنا ولكن عجلنا عن مراسلتهم ، فنقبنا البيت من خارج ، ثم دخلناه وفيه سراج تحت جفنة . واتقينا بفيروز ، لأنه كان انجدنا وأشدنا ، فقلنا انظر

ماذا ترى وأين موضعه ؟ فدخل ونحن بينه وبين الحرس الذى مع الأسود فى مقصورته ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطا شديدا واذا المرأة جالسة ، فلما قام على الباب فتح الأسود عينيه وقال مالى ولك يافيروز ، فخشى أن يرجع لأخذ السلاح واعلامنا ، فنهلك ونهلك المرأة ، فعاجله وخالطه ، وكان مثل الجمل ، فأخذ برأسه فدقه ووضع ركبته فى ظهره فدقه ، ثم قام ليخرج ، فأخذت ازاذ بثوبه وهى ترى انه لم يقتله ، وقالت أين تدعنى ، قال لها لا بأس أخبر أصحابى وأعود معهم ، فأتانا وقمنا معه ، فأردنا حز رأسه ، فتحرك واضطرب ، فلم نضبطه ، فقلت اجلسوا على صدره ، فجلس الاثنان على صدره وأخذت المرأة بشعره ، وأمر الشفرة على حلقة ، فخار كأشد خوار من ثور سمعته قط ، فابتدر الحرس الباب ، وهم حول المقصورة ، ماهذا ماهذا ؟ فقالت ازاذ : النبي يوحى اليه ، اهدءوا ، فخمد ، ثم سمرنا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا ، فأجمعنا على النداء بشعارنا الذى بيننا وبين أشياعنا ، ثم ننادى الأذان ، فلما طلع الفجر ، فعلنا ذلك فناديتهم . أشهد ان محمدا رسول الله ، وأن عيهلة كذاب ، والقينا اليهم برأسه ، وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الاسلام ، وتنافسنا الامارة وتراجع أصحاب رسول الله الى أعمالهم بعد أن كانوا قد هربوا وتصالحوا على معاذ فكان يصلى بنا ، وكتبنا الى رسول الله بالخبر ، وذلك فى حياته ، فقدمت رسلنا وقد مات النبي صبيحة الليلة التى فتكنا فيها بالأسود ، فأجابنا أبو بكر رضى الله عنه ، وجاء رسول الله الخبر من السماء فقال فى صبيحتها قتل العنسى الليلة ، قتله رجل مبارك وهو فيروز ، ثم تقدمت بعد ذلك الرسل وقد توفى رسول الله .

وإنما فصلنا حديث هذا الكذاب على ما رأيت ، لأن ردته أول ردة فى الاسلام ، واسمه عيهلة ، وهو من عنس قبيلة يمنيه منها عمار بن ياسر وأهله .

مرض رسول الله ووفاته

أول مابدى به رسول الله ﷺ من ذلك ، أن الله نعى اليه نفسه بقوله: إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة ، ثم بدأه الوجع لليلتين بقيتا من صفر ، وتمادى به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استقر به فى بيت ميمونة ، فاستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له ، وخرج على الناس فخطبهم ، وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم ، ثم قال : ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ماعنده ، وفهمها أبو بكر فبكى وقال : بل نفديك بانفسنا وأبنائنا ، فقال على رسلك يا أبابكر ، ثم جمع رسول الله أصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيرا وقال : أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واوصى الله بكم وأستخلفه عليكم وأودعكم اليه ، إنى لكم نذير وبشير ، ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده ، فانه قال لى ولكم (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) وقال (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين)

ثم سألوه عن مغسله وكفنه والصلاة عليه ومن يدخل فى قبره فبين لهم ، ثم قال ائتونى بدواة وقرطاس اكتب لكم كتابا لاتضلون بعده ، فتنازعوا وذهبوا يعيدون عليه ، ثم قال دعونى ، فما أنا فيه خير مما تدعونى اليه

وأوصى بثلاث (١) أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب (٢) وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم ، ولم تعرف الثالثة ، قيل كانت الوصية بالقرآن ، أو تجهيز جيش أسامة ، أو هى لاتتخذوا قبرى وثنا . وأوصى بالانصار فقال انهم كرشى وعيبتى التى أويت اليه ، فاكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، قد أصبحتم يامعشر المهاجرين تزيدون والانصار لايزيدون ، ثم قال : سدوا

هذه الأبواب فى المسجد إلا باب أبى بكر ، فانى لااعلم امرأ أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وأخاء وإيمان حتى يجمعنا الله عنده

ثم ثقل به ﷺ الوجع وأغمى عليه ، فاجتمع اليه نساؤه وأهل بيته والعباس وعلى ، ثم حضر وقت الصلاة ، فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة : انه رجل اسيف لايستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر ، فامتنع عمر ، وصلى أبو بكر ، قالت عائشة : فوالله ما أقول ذلك إلا أنى كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر ، وعرفت أن الناس لايحبون رجلا قام مقامه أبدا ، وان الناس سيتشاءمون به فى كل حدث — وروى أن عمر صلى بالناس مرة وكان أبو بكر غائبا ، فلما كبر سمع النبى صوته فقال فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، مرتين ، فبعث إلى أبى بكر فجاء فصلى بالناس بعد ذلك ووجد رسول الله خفة فخرج إلى المسجد ، فلما أحس أبو بكر تأخر ، فجذبه رسول الله ﷺ وأقامه مكانه ، وقرأ من حيث انتهى أبو بكر ، ثم كان أبو بكر يصلى بصلاته ، والناس بصلاة أبى بكر ، قيل ثم صلى بهم أبو بكر سبع عشرة صلاة

وكان رسول الله وهو فى النزع يدخل يده فى القدح فيمسح وجهه بالماء ويقول : اللهم أعنى على سكرات الموت

فلما كان يوم الاثنين — وهو يوم وفاته — خرج إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه وأبو بكر يصلى فنكص عن صلاته ، فرده رسول الله بيده وصلى قاعدا عن يمينه ، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم

ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر : إنى أراك أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب ، وخرج إلى أهله بالسنح وهو من عوالى المدينة ، ودخل رسول الله

بيته فاضطجع فى حجرة عائشة وهى تحتضنه ، قالت ثم ثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول بل الرفيق الأعلى من الجنة ، فعلمت أنه خير فاختار ، ثم قبض رسول الله ﷺ وهو بين سحرى ونحرى ، وذلك يوم الاثنين لاثنى عشرة من ربيع الأول ، ودفن من الغد نصف النهار من يوم الثلثاء ، ونادى النعى فى الناس ، وأبو بكر غائب فى أهله بالسنح وعمر حاضر ، فقام فى الناس وقال : ان رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله مات وانه لم يمت ، وانه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وليرجعن فيقطعن أيدى رجال وأرجلهم

وأقبل أبو بكر حين بلغه الخبر حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل بيت عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية هذا البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل فقبله ثم قال بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ، ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ ، وخرج وعمر يكلم الناس ، فقال على رسلك ياعمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لاينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت ، ثم تلا (ومامحمد إلارسول قد خلت من قبله الرسل .... الآية) فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبى بكر فانما هى فى أفواههم ، قال عمر . فوالله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ماتحملنى رجلاى ، وعلمت أن رسول الله قد مات ، وقال عبد الله بن عمر . فكأنما كانت على وجوهنا أغطية ثم كشفت

أما بقية الصحابة فكانوا من الدهش وطيش العقول على درجات . فمنهم من خبل كعمر فقال ماقال، ومنهم من أخرس كعثمان حتى كان يذهب به ويجاء وهو لايستطيع كلاما ، واضنى عبد الله بن أنيس فمات كمدا

وأما أبو بكر فكان مثلا أعلى فى الثبات والصبر والشجاعة ، نعم ، جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد فى صدره، وغصصه ترفع ، ولكنه مع ذلك كان جلد العقل جيد المقالة

وتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن ٦٣ سنة قضى ٤٣ منها بمكة ، كان فى ١٣ منها نبيا ، ثم قضى ١٠ بالمدينة دار هجرته

ولما طار خبر الوفاة إلى مكة ارتجت مكة ، وكاد أهلها أن يرتدوا ، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا، فقال يأهل مكة ، لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله ، فلقد رأيته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول . قولوا معى لا إله إلا الله تدن لكم العرب ، وتؤدى اليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ، فمن بين مستهزىء ومصدق ، فكان مارأيتم ، والله ليكونن الباقى فامتنع الناس عن الردة

وهذا هو المقام المحمود الذى نوه به رسول الله لما أمر سهيل فى بدر ، فقال عمر دعنى أنزع ثنيتيه يارسول الله ، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا ، فقال رسول الله دعه ياعمر ، فسيقوم مقاما تحمده عليه

عود — وبينا الناس فى حالهم السابق إذا رجل جاء يسعى بخبر الأنصار أنهم اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يبايعون سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فى نفر قليل من المهاجرين ، وأقام على والعباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد

يتولون تجهيز رسول الله ، فضله على ، سنده إلى ظهره ، والعباس وابناه يقلبونه معه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعلى يدلك لايفضى إلى بشرته ، ثم كفنوه فى ثوبين صحاريين وبرد حبرة ، أدرج فيهن ادراجا ، واستدعوا حفارين أحدهما يلحد والآخر يشق ، واختلفوا أيدفن فى مسجده أو بيته ، فقال أبو بكر سمعته ﷺ يقول . ماقبض نبي الا يدفن حيث قبض ، فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته ، ودخل الناس يصلون عليه أفواجا . الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد ، لايؤم أحدهم أحدا ، ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء أو من وسط النهار يوم الثلثاء

وقالت فاطمة لأنس . أطابت نفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ فسكت عن جوابها رعاية ، ولسان حاله يقول : لم تطب أنفسنا بذلك ، إلا أننا قهرنا على فعل ذلك امتثالا لأمره

تركة رسول الله

كان رسول الله زاهدا فى الدنيا معرضا عنها مقتنعا بالبلاغ منها ، وقد دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جسمه فقال له : لو اتخذت فراشا أوطأ من هذا ؛ فقال : مالى وللدنيا ، والذى نفس محمد بيده مامثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ، ثم راح وتركها

هذا شأن النبي وقد ملك من أقصى الحجاز الى عذار العراق ، ومن أقصى اليمن إلى شحر عمان ، وهو أزهد الناس فيما يقتضى ويدخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر ، لم يخلف عينا ولادينا ، ولاحفر نهرا ، ولاشيد قصرا ، ولم يورث أهله متاعا ولا مالا ، وقد مات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصع من شعير لطعام أهله

هذا شأن النبي وقد ملك جزيرة العرب ، وكان فيها ملوك وأقيال ، لهم خزائن وأموال ، يقتنونها ويتباهون بها ويستمتعون بها ، وقد حاز ملكهم ، فما اقتنى دينارا ولا درهما ، وكان قد حاز غنائم هوازن ، وما أكثرها كما سلف ، فجاد بجميع حقوقه منها وعاد خلوا

مات وله فدك خالصة من دون المؤمنين ، فصارت بعد موته للمسلمين ، وجاءت فاطمة إلى أبي بكر تريد أن ترثها ، فذكرها بقول أبيها : نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه صدقه ، فكفت — وبعد فحقيق بمن كانت هذه بعض أخلاقه أن يكون لزعامة العالم أهلا وبالنيابة عن الناس فى مصالحهم أولى — صلى عليه وعلى آله وصحبه وسلم

حياة رسول الله وأثر الاسلام فى العرب

مما تقدم نستنبط أن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام انقسمت إلى الأقسام الآتية : —

(١) حياة ماقبل النبوة ، وكان فيها كأحد قومه ، ولما شب حبب اليه الاعتكاف بحراء لطلب الدين الحق ، دين فاطر السموات والارض ، وظل هذا سبيله إلى أن نزل عليه الروح الامين ، وفى هذه الفترة كان له من الناحية الخلقية منزلة عظمى بين قومه حتى دعوه بالامين

(٢) حياة النبوة والرسالة ، وتنقسم الى مدتين ،

الأولى . مدة مقامه بمكة ، وكان فيها يدعو إلى الله سرا ، ثم أمره الله أن يجهر بالدعوه ويعرض عن المشركين ، ولقد لقى من المشركين ضروبا من الاذى ، وكان متى كان اكرم وعنهم اصفح ؛ كانوا الأم وعليه الخ . والعجب انهم كانوا احلم إلا فيما بينهم وبينه ، فسخروا منه وتلقوه بما يكره ، ورموه بالحجارة

وهموا بقتله ، وكان لايتولى هذا منه إلا العظماء . والاخوال والاعمام والاقرب فالاقرب . فاذا كانوا كذلك كان أشد للغيظ وأثبت للحقد

وظلم ذوى القربى أشد مضاضه على المرء من وقع الحسام المهند

وكذلك صنعوا مع من آمن به وصدق دعوته ، ولذلك كان سير الاسلام بطيئا ، ولكن ذلك لم يثنه عن دعوته ، ولم يزعزع ايمان أصحابه ، بل كلما زادوهم أذى ، زادوا ثباتا ، إلى أن اشتد الاذى فأذن اليهم فى الهجرة إلى الحبشة ، ثم هاجر بقيتهم إلى المدينة بعد ذلك ولحق بهم

والثانية . حياة مابعد الهجرة إلى المدينة ، وذلك حينما يئس من اهتداء أهل مكة ، وبعد وفاة أبى طالب ، وبعد أن عرض نفسه على القبائل فلم يستجب أحد اليه ، فلما جاء الانصار وبايعوه على أن يهاجر اليهم ، خرج إلى المدينة ، وهنالك آخى بين المهاجرين والأنصار ، فاشتد بذلك ساعده ، وصار منذ تم له ذلك فى جيش يتمكن به من الدفاع عن دعوته وعن أصحابه ، ولهذا كان سير الاسلام سريعا ، وشرعت الشرائع وفرض الجهاد ، وأصبح ﷺ قائداً عاما وحاكما يحكم بما أنزل الله ، ومازال يدافع المهاجمين له والمحرضين عليه ، ويحارب المحاربين له والمتجمهرين عليه حتى فتح مكة ، ودخل كثير من زعماء أهلها وقادتهم فى الاسلام ، وخبت نار العداء ، فجاءته الوفود من كل ناحية مسلمة مسالمة ، حتى لم يبق فى نواحى بلاد العرب من يشرك بالله شيئا ، ودانوا له جميعا ، وصارت كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، إلى أن اختار عليه السلام الرفيق الاعلى

أما أثر الاسلام فى العرب فواضح من أنه أزال ما كان بينهم من احن ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا اخوانا ، بعد أن كانوا أعداء ، وقضى على الرذائل التى كانت شائعة فيهم كالوأد خشية العار ، أو فرارا من النفقة ، والفحش الذى لم يك معه للعفاف قيمة

وأطلق الناس من قيود الاستعباد للرؤساء الذين ضلوا فى عقائدهم . واتبعوا اهواءهم ، وغلبتهم على الحق شهواتهم وميولهم ، فأطاعهم رهبة أو رغبة رعاياهم الذين كانوا كأنهم لم يخلقوا الا لخدمة سادتهم ، وجاء الاسلام فجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام . وأنزل هؤلاء الرؤساء الى مصاف العامة ، وجعلهم ومرءوسيهم سواسية فى الحق ، ولاتفاوت بينهم إلا بتفاوت أعمالهم الصالحة .

كما فكهم من أسر التقليد ، تقليد آبائهم الاولين فى ضروب السفه والحمق ، والانقياد الاعمى للرأى ، وبهذا وماسبقه ثم للمسلم الاستقلال فى الارادة ، والاستقلال فى الرأى ، ولاكمال للانسان بغيرهما

على أننا إن ننس لاننس أن الاسلام جمع العرب على دين واحد وهو التوحيد ، بعد أن فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، متنابذين متلاعنين ، فى فوضى دينية ؛

وجمعهم على رئيس واحد أوحاكم واحد ، هو رسول الله وخلفاؤه من بعده ، بعد أن تعدد حكامهم ورؤساؤهم ، وكانوا فى فوضى سياسية .

وبذلك يكون الاسلام قد جمعهم الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، فتحولت أهواؤهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية ، وتحول ماكانوا عليه من بغى وعدوان ونهب وسلب ، إلى حالة أخرى امتلأت قلوبهم فيها غضبا لله ولدينه ، وكان الرسول قد بلغ رسالته إلى ملوك الفرس والروم والحبشان فامتنعوا أو ترددوا وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فبعث اليهم البعوث فى حياته ، وتبعه فى هذا خلفاؤه الراشدون ، فكان المسلمون يتدافعون إلى غزوهم تدافع السيل الجارف ، حتى ملكوا عليهم بلادهم ؛ وفى أقل من قرن كان الاسلام منتشرا فيما بين بلاد الصين من الشرق

والمحيط الاطلسى من الغرب ، وذلك كله فضل الوحدة ، واجتماع الكلمة ، فى جزيرة العرب

أما انتشار الاسلام بهذه السرعة فيرجع إلى أنه دين سهل معقول ، وهو أمس بمصالح الناس ، وأقرب الى قلوبهم ومشاعرهم ، وأدعى الى الطمأنينة . ودين هذه بعض صفاته ، يجد إلى العقول منفذا ، والى القلوب مخلصا ، ولو أن أهله استمسكوا بعروته الوثقى ، وعملوا على مقضى أصوله وقواعده المحكمة ، لظلت راياتهم تخفق على ذلك الملك الواسع الاطراف إلى اليوم .

لايقال : كان العرب على دين ، ومن أجله قاموا يحاربون رسول الله دفاعا عنه ، فانهم انتحلوا أشياء كانوا فيها اسرى تقليد من سبقهم ؛ وقد قال الله تعالى يندد بهم (إن هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماانزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون إلا الظن وماتهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ان الدين الاسلامى يكاد يكون منفردا من بين الاديان بتقريع المعتقدين بلادليل وتوبيخ المتبعين للظنون وقلما يوجد دين يساويه أو يقاربه فى هذه المزية

هذا ويمكن أن نقول مع التسامح فى التعبير — ان رسول الله قد أنشأ فى حياته أمورا ثلاثة عظيمة لاتتم الواحدة منها فى قرون طويلة ؛ وهى .

(١) أنشأ أمة . متالفة متعاونة ، من قبائل العرب المتباغضة المتطاحنة ، وأعدها اعدادا صحيحا لأن تتبوأ مكانتها بين أمم الارض ذات التاريخ المجيد والفتح المبين والملك العريض فكان له منها دولة قوية عنت لها من بعده وجوه الاكاسرة والقياصرة ، وصار أبناؤها يرون بحق أنهم أهل للسيادة على العالم ؛ وأولى بقيادة الامم ، ونشر العدل والسلم على الارض ، وصارت فى أقل من قرن تخفق راياتها على البلاد المتمدينة ، الممتدة من جدار الصين شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا . ولم تبلغ دولة من دول الارض مابلغت دولة الاسلام .

(٢) أنشأ ملة ، وهى الدين الاسلامى ، دين التوحيد ، الذى ضم سكان القفار العربية إلى وحدة دينيه لم يعرفها تاريخهم ، ولم يمهد لها نظير فى ماضيهم ، فقد كانوا فى دينهم فرقا وشيعا واحزابا لا يضبطها العد ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وجاء الاسلام فاجتث جذور الوثنية ، وطهر عقولهم من الاوهام الفاسدة ، فأصبح الفرد منهم بالاسلام حرا ، لا يخضع الا لله الواحد القهار ، لا للأحجار ولا للاشجار ، ولا للكهنة والعرافين ، ولا لما يتوارث عن الآباء من ضروب العقائد السخيفة ، وأنواع السفاهة والجهالة — ثم أصبح به ذلك البدوي الجلف الوحشى ، انسانا كريم الاخلاق ، مهذب النفس ، راقى العواطف ، الى حد انه صار يتوقد غيرة أو عطفا على البشرية المعذبة ، التى تئن تحت سيطرة الفرس والروم ، وتستغيث برب الناس ، ليرسل اليها من ينقذها من الاستعباد ، ويخلصها من الظلم ، وقد حملت العواطف ذلك البدوى — بعد أن أسلم — على أن يضحى بنفسه وماله فى سبيل انقاذ الانسان المظلوم من الانسان الظالم ؛ لقد عمل الاسلام فى نفسه عمل السحر ، حتى استحال بين عشية وضحاها من حال الى أحسن حال . فسبحان الحكيم القادر .

(٣) شرع قانونا ، أو جاء من عند الله بدستور عام ، هو القرآن الحكيم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى آخذ العلماء من أهل الملل المختلفة على ما أفسدوا من العقائد ، وما خلطوا من الاحكام وما حرفوا بالتأويل ؛ والذى شرع للناس أحكاما تتفق مع مصالحهم ، وجاء بحكم ومواعظ وآداب خشعت لها قلوبهم ، ودهشت منها عقولهم ، وانصرفت وراءها هممهم ؛ والذى حث على التعليم والارشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلما أذعن اليه العرب بعد اسلامهم أقاموا صروح دولهم عليه ، وجعلوه حجتهم القائمة على الامم الاخرى فى إحكام أحكامه ، وتقريره قواعد العدل والانصاف والحرية والمساواة .

كل هذا أورق وأينع وأزهر وأثمر فى ربع قرن ثم كان له فى الأمة الاسلامية وحياتها المجيدة شأن عظيم .

لقد أحدث الاسكندر دولة ، وأحدث نابليون دولة ، ووضع كل منهما لدولته من النظم ماظن أنه يكفل لها السعادة ، ولكن كلا منهما كانت دولته فى أمم لها عهد بالملك والنظام ، فلم يطرأ عليها جديد الا ذلك القائم بها وهو المتغلب ، وفرق بين هذا وبين ملك وشرع ودستور يضم سكان الصحارى العربية المتنافرة المتعادية التى لاعهد لها الا بالخروج على النظام ، لاقانون يخضعها ، ولاسلطان يجمع كلمتها .

أما سر انتشار الاسلام بسرعة فيرجع إلى أن الاسلام دين الفطرة ، يحق الحق ويبطل الباطل ، ويخاطب العقول ، ويحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال

كما يرجع الى ما اتصف به رسول الله ، من اعتقاده صحة مايدعو اليه ، وثقته بتأييد الله ، واجتهاده فى نشر دعوته بجميع الوسائل المشروعة ، وثباته وصبره على ماكان يلاقيه من أذى أقرب الناس اليه وهم أهله وعشيرته الذين نصبوا أنفسهم لتحديه وعناده وتحريض القوم عليه — لكنه قام بهذه الدعوة وحده صابرا ، وقومه ما بين مستهزىء به وغافل عنه ومستعد عليه ، أما هو فكان يقارعهم بالحجة ، ويناهضهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر ، وأخيراً سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، وسخر من آلهتهم ، وأنذرهم عذابا أليما ، والى ذلك صباح مساء حتى أخذتهم العزة بالاثم وأجمعوا أمرهم بينهم على قتله ، ليريحوا الناس منه ، لولا ماكان من حماية عمه أبى طالب اياه

بهذه الاخلاق وما ماثلها ، نجح فى فتحه ونشر دين الله واعلان أحكامه فى ذلك الزمن القصير الذى أصبح العرب فيه أمة : من الدين على التوحيد ،

ومن الاخلاق على شرعة الفلاسفة ، الذين قتلوا الغرائز والميول بحثا ، وما أدراك أن ذلك كله كان الاساس المتين لما كان بعد وفاته وفى عصر خلفائه ، إذا صارت الأمة العربية دولة الزمان ، وقد تغيرت بفتوحها عقائد ولغات وعادات ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وقد رأيت ان ألحق هذا الفصل بمقال صغير لكاتب أمريكى كبير دونه بعنوان

من أعظم الحوادث فى التاريخ ، وفاة محمد

قال : فى سنة ٦١٢ بعد الميلاد ، وهى السنة الهجرية العاشرة ، غادر محمد هذه الدنيا ، بعد أن انشأ دينا اكتسح أفريقية من القاهرة الى مراكش ، وجنوب أوربا ، ونصف آسيا ، من القدس الشريف إلى بغداد إلى طهران إلى دهلى ، وسيطر عليها قرونا هذا عددها .

وإذا صرفنا النظر عن الحروب التى سارت فى ركابه أو أثره ، وجدنا أنه دين شريف ، ودين توحيدى صارم ، ينبذ الصور والكهنة وتعدد القديسين ، دين يبنى الخلق القوى بعقيدة القضاء والقدر والمران على الحروب ، دين بنى فى قرطبة وغرناطة والقاهرة وبغداد ودهلى جامعات وثقافات ، دين منح العالم حاكما من أكبر حكامه أكبر الهندى ، وزين اسبانيا ومصر والقسطنطينية وفلسطين والهند بعمارته الرشيقة النبيلة من قصر الحمراء إلى التاج محل

كان المسلمون يبنون كجبابرة ويتقنون عماراتهم كصواغ ، واليوم رغم تفرقهم السياسى يزدادون عددا وقوة ، ففى الصين والهند نجد معتنقين للاسلام فى كل ساعة من كل يوم ؛ ولا أجزم بأن المستقبل ليس لهم . انتهى

أقول : ومادام الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه المجيد الذى يتبعه العلم حيثما سار ، ومادام الله يأبى الا أن يتم نوره ويظهر دينه على الدين كله ، فان أهل القرآن بعد انصرافهم عن كتابهم ودينهم سيقبلون على كل منهما فيقبل

عليهم الزمان تبعا لذلك ، وتعود الدولة اليهم ، وعد الله لايخلف الله وعده ـ

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا

ثم أختم الموضوع بهذه الآية الكريمة

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

obeikandl.com